

فقه السيرة بين الغزالي والبوطي

محمود حسن مخلوف

مقدمة:

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وألهم وأصحابهم وأتباعهم إلى يوم الدين.

وبعد.

فإن غايتي في هذا البحث هي الاجتهاد في تحديد المنهج السديد لقراءة كتب السيرة، وتمثل كافة أحداثها العظيمة، وما أثبتته مدوناتها من أقوال وأفعال وأحوال سيد الخلق صلى الله عليه وسلم. بما يستضاء به في ظلمات حياة الأمة المسلمة اليوم اعتقادًا وتشريعًا وسلوكًا، على مستوى الأفراد والمجتمعات والدول.

ولقد حاولت تلمس هذا المقصد من خلال قراءة مقارنة بين كتابين عظيمين التقيا على مورد

واحد هما فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي*، وفقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي**

رحمهما الله.

وهذان العلمان من أجلة علماء المسلمين في القرن الأخير، وقد تحقق فيهما من سمو الغاية

واستقامة المنهج وغزارة العلم وقوة النظر وجهاد الدعوة والاستقامة عليه، تحقق لهما من هذا كله

القسط الأوفر.

* الشيخ محمد الغزالي أحمد السقا، ولد في محافظة البحيرة بشمال مصر 1335هـ/ 1917م وتوفي 1417هـ/ 1996م،

له عشرات المؤلفات التي كتب لها عظيم التأثير والقبول رحمه الله وجزاه خيرا.

** الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: ولد في بوطان بتركيا 1929م حصل على العالمية الدكتوراه من كلية الشريعة

بجامعة الأزهر 1965م، كتب أكثر من أربعين مؤلفا في الشريعة والآداب والدعوة. رحمه الله تعالى وأدخله في زمرة

الشهداء والصالحين.

ولا عجب إذن أن يتواتر الأستاذان على عنوان واحد، وأن يسري بينهما الاشتراك في عموم الغاية وعموم المنهج. لا عجب في هذا، فبين الكاتبين من وشائج قربي الزمان والمكان والبيئة الدعوية ما يجلي سر هذا الالتقاء.

فكثير من عناوين مباحث "البوطي" تقطع بأنه كتب كتابه وبين عينيه كتاب سلفه "الغزالي"، وكذلك الحال في ترتيب مباحثه، بل يظهر هذا في غير قليل من تحليلاته ونتائجه.

فالقسم الثاني عند البوطي: "من الميلاد إلى البعثة" 44-62 هو ذات العنوان المترجم به الفصل الثاني عند الغزالي "من الميلاد إلى البعث" 49-78 والجزئيات تكاد تتوحد، حيث تحدث الفاضلان عن الحياة الأولى من المولد والنشأة وما تخللها من أحداث خارقة وفتوة جادة وشيبة طاهرة إلى الزواج الكريم والمشاركة في مهمات قومه من حرب وتحالف وبناء الكعبة إلى التحنث في غار حراء الذي بدأ فيه الوحي. وكذلك الحال في بقية الأقسام والفصول لا يخفى فيها مدى التأثير.

ومع هذا فإن لكل من الأستاذين خصوصية ميّزته عن صاحبه في منهج التفكير واختيار النصوص وتحليلها وإفادة الأحكام والحكم منها وقد تجلّى هذا في كثير من صفحات الكتابين:

فتحديد الأستاذين الغاية لما كتبا، ومنهج كل منهما في اعتماد رواية السيرة النبوية وموقفهما من خوارق العادات وضبط مفهوم حب النبي العظيم والتبرك بأثاره والتوسل به إلى قضايا أخرى تباينت حولها وجهتا الكاتبين تبعًا لاختلاف الطبع والمشرّب لدى كل منهما.

وعلى الرغم من هذا فقد حقق الفاضلان ما قصدها من إبراز معالم السيرة النبوية صافية سامية مشرقة، ووفق كل منهما في فقه ما أورده من أحداث ومرويات واستنباط الحكم والأحكام منها بما يرسم منهجًا متكاملًا يصلح أن يسلكه جمهرة المسلمين حيث تجلت لهم سنن الهدى ومناثر الاقتداء.

وقد قصدت في هذا البحث أن أجمع بين هذين الكتابين مبررًا ما بينهما من اشتراك واختصاص، موضحةً عظيم ما أفدته من كل منهما حتى يتسنى لي دعوة إخواني طلاب العلم: ألا يصددهم عن الانتفاع بكتب العلماء ما يجدونه من مخالفة لما ربوا عليه في مهادهم العلمي، وأن الحقيقة العلمية قاسم مشترك بين العلماء، لا يجمع أطرافها قارئ إلا من المطالعة الواعية لما كتبه العلماء المجتهدون جميعهم، وأنه ليس من الإنصاف للعلم والعقل أن يقصر الطالب مطالعته ونظرة على طائفة من أهل العلم وكتبهم - وإن أحسن بهم الظن - الأمر الذي حبس كثيرا من طلاب العلم في جزر علمية متنافرة، وهذا - لعمرى - مخالف لمنهج صاحب السيرة الغراء صلى الله عليه وسلم.

أعتقد جازماً: أن طالب العلم يجب عليه أن يتحلّى بسعة الصدر ونبذ العصبية والصبر الجميل والنفطة الملازمة. وأساس هذا كله الإخلاص لله سبحانه، وغداؤه الحب للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم.

ولعل أقوى ما يلزم بهذا الإدراك الواعي المتيقن، هو أن الموضوعات الكبرى لا يستوفي جوانبها كاتب مهها أوتي من موهبة، وامتلك من وسائل، لذا كان تعدد الكتابة حول الموضوع العظيم أبر وأليق بكشف جوانب عظمتها، سيما وأن كل جانب من جوانب العظمة يجذب إلى أفيائه طبقة من الناهين.

وسوف تنتظم نقاط هذا البحث حسب الإشارات التالية:

1- غاية المؤلفين من كتابيها.

2- تحديد المنهج المتبع فيها.

3- أهم معالم فقه السيرة في الكتابين.

ثم يجتم البحث بموازنة موجزة مفيدة إن شاء الله.

أولاً: غاية الكتابين:

لقد كتب الشيخ محمد الغزالي رحمه الله كتابه وهو في آخر عهد الشباب وكان فائق الذكاء، متوقد الإحساس، قد اكتوى آنذاك بظلم سجون الطغاة، وقت صحبته للشيخ حسن البنا رحمه الله، كما فجع مع الشباب المسلم الغيور بسقوط دولتهم في فلسطين وعانى رضوخ بلاد المسلمين تحت أقدام الصليبيين الجدد. فاتقدت نيران هذا كله في نفس "الغزالي" الشاب، فلم تطق نفسه وهي في رحاب "فقه السيرة" ما شاع بين مسلمي زمانه من "شكلية" الانتساب إلى صاحب السيرة الغراء صلى الله عليه وسلم وسداجة ادعاء محبته عليه الصلاة والسلام، فدفعه هذا وما هو أعمق منه إلى أن يقول: "توفرت على إخراج هذا الكتاب وأمامي غاية أرجو أن أكون بلغتها. إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشورا خفيفة، لا تحرك القلوب ولا تثير الهمم وهم يعظمون النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان، وبما قلت مؤنته. ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه تساوي الجهل بها، إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى. إن حياة محمد صلى الله عليه وسلم ليست بالنسبة للمسلم مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد، كلا، كلا. إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها. فأني حيف في عرض هذه السيرة، وأي خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه ... وقد بذلت وسعي في إعطاء القارئ صورة صادقة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه

وسلم واجتهدت في إبراز الحكم والتفسير لما يقع من حوادث، ثم تركت للحقائق المجلوة أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتيال" (1).

على حين قال البوطي حفظه الله: "أردت أن يكون أهم عملي في هذا الكتاب هو الإقدام على إزالة بقية الأطلال القائمة لتلك المدرسة المذكورة" (2) (★).

فغير قليل مما أورده البوطي وفقه حكمه وأحكامه موجه إلى رواد المستغربين، ومتنطعي السلفيين، ومنحرفي المتصوفين، وملابسات تأليف الكتاب تلقي ضوءاً كاشفاً على هذا كله.

فالرجل نشأ في كنف والد عالم فقيه صوفي ذي بصيرة، عانى كثيراً من المشتغلين بالعلوم حوله، وقد ترك هذا بصماته واضحة في كثرة من صفحات الكتاب "الذي تضمن تصحيحاً للأخطاء، بل للانحرافات التي وقع فيها كثير من الكتّاب العصريين، لاسيما أولئك الذين يتعاملون مع الشعار العصري المشبوه "قراءة معاصرة" (3).

ويقول الغزالي: "قصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئاً ينمي الإيمان ويزكي الخلق ويلهب الكفاح ويغري باعتناق الحق والوفاء له ويضم ثروة طائلة من الثروة الرائعة لهذا كله" (4).

ويقول البوطي حفظه الله: "ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية وفقهها مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية، ولا سرد ما طرف وجمل من القصص والأحداث، ولذا فلا ينبغي أن نعتبر دراسة فقه السيرة النبوية من جملة الدراسة التاريخية، شأنها كشأن الاطلاع على سيرة خليفة من الخلفاء، أو عهد من العهود التاريخية الغابرة.

وإنما الغرض منها: أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في حياته صلى الله عليه وسلم بعد أن فهمها مبادئ وقواعد وأحكاماً مجردة في الذهن، أي أن دراسة السيرة النبوية ليست سوى عمل تطبيقي يراد منه تجسيد الحقيقة الإسلامية كاملة في مثلها الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم" (5).

1- الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الدعوة، الاسكندرية، 1428هـ/ 2008م طبعة ثامنة، ص 7.

2- محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار السلام، القاهرة، 1431هـ/ 2010م، ص 11، وانظر: ص 1029.

★ هي "مدرسة الإصلاح الديني" التي تنسب إلى الشيخ محمد عبده، ومن رجالها الذين أوردتهم المؤلف في الصفحات السابقة أ. محمد حسين هيكل، وأ. محمد فريد وجدي، والشيخ محمد المراغي.

3- مقدمة الطبعة الجديدة، ص 7.

4- الغزالي، فقه السيرة، ص 8.

5- البوطي، فقه السيرة، ص 15.

ثانيًا: منهج الكتابين:

يقول الغزالي:

"قد بذلت وسعي في إعطاء القارئ صورة صادقة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتهدت في إبراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث، ثم تركت للحقائق المجلوة أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتيال.

وقد استفدت من السير التي كتبها القدامى والمحدثون استفادة حسنة: إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التحليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك وذلك أحسن ما في طريقتهم.

والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار وتمحيص الأسانيد وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشئون وفي هذه المحفوظات الكثيرة نفائس ذات خطر، لو أحسن الاستشهاد بها وإيرادها في مواضعها.

ولعلي هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد، يجمع بين ما في كليهما من خير، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعًا متماسكًا يشد أجزاءه روح واحد، ثم وزعت النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع وتعين على إتقان صورته وإكمال حقيقته. إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده أو تابع عن سيده أو تلميذ عن أستاذه ولست - كما قلت - مؤرخًا محايدًا مبتوت الصلة بمن يكتب عنه.

ثم إنني أكتب وأمام عيني مناظر قائمة من تأخر المسلمين العاطفي والفكري. فلا عجب إذا قصصت وقائع السيرة بأسلوب يومي من قرب أو من بعد إلى حاضرنا المؤسف، كلما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر وجلال العمل"⁽⁶⁾.

وقد حدد النص السابق منهج الأستاذ في كتابه من رسم الصورة الصادقة المعبرة عن صاحبها أعظم تصوير وأدقه، ثم الاجتهاد في استنباط الحكم وتوجيه الحوادث، لينتج من هذا وذاك التأثير المرتجي. وطبعي أن ينضح قلم المؤلف بشعوره نحو صاحب السيرة، فقلبه متيم بحبه، وعقله مفعم بتعظيمه ومن قبل ومن بعد فهو للكاتب أسوة الاعتقاد والتشريع والسلوك.

وبدهي أن يوظف المؤلف كل هذا ليكشف الران عن قلوب وعقول كثير من المتسبين إلى صاحب السيرة الغراء، مع غفلتهم وبعدهم عن الانتفاع بهذا الخير العظيم مع دعواهم حبه وتصديقه. ويا بعد ما بين دعوى اللسان وعمل الجنان والأركان!

أما "البوطي" فإن منهجه يتضح من خلال عدة نصوص عرض فيها إلى سرد منهج العلماء الراسخين، ثم إثبات منهجه الذي ارتضاه وسار عليه موصولاً بهم.

فأما منهج العلماء السابقين فقد تمثل في عمليتين عظيمين، "أولهما: العمل التاريخي المعني بهذه السلسلة من سيرته صلى الله عليه وسلم وينحصر في نقلها إلينا محفوظة مكلفة، ضمن تلك الوقاية العلمية، التي من شأنها ضبط الرواية من حيث الإسناد واتصاله ومن حيث الرجال وتراجمهم ومن حيث المتن أو الحادثة وما قد يطوف بها من شذوذ ونحوه. ثانيهما: عملية استنباط النتائج والأحكام والمبادئ والمعاني من هذه الأخبار، وهي عمل علمي آخر لا شأن له بالتاريخ، وما ينبغي أن يمزج به بحال من الأحوال. إنه عمل علمي متميز ومستقل بذاته، ينهض بدوره على منهج وقواعد أخرى، من شأنها أن تضبط عملية استنباط النتائج والمبادئ من تلك الأحداث، ضمن قالب علمي يقصدها عن سلطان الوهم وشهوة الإرادة النفسية، التي يعبر عنها أمثال "وليم جيمس" بإرادة الاعتقاد. من هذه القواعد: القياس الاستقرائي، وقانون الالتزام بأنواعه المختلفة والدلالات بأنواعها"⁽⁷⁾.

هذا وقد أكد المؤلف في مواضع كثيرة من كتابه على ضرورة التزام كاتب السيرة بأن يقدم محمداً صلى الله عليه وسلم من خلال الهوية التي قدم نفسه بها إلى أمته من حيث كونه نبياً ورسولاً مبلغاً عن الله وحيه ودينه، لا من حيث حاول بعض الكتاب تصويره بكونه زعيماً سياسياً أو قائداً وطنياً أو رجل فكر ومذهب أو مصلحاً اجتماعياً⁽⁸⁾.

هذا هو سمت منهجه الذي سار عليه، والذي جاء "على المنهج المدرسي القائم على استنباط القواعد والأحكام، مبتعداً عن المنهج الأدبي التحليلي المجرد، وإن كان لكل مزيتته وفائدته"⁽⁹⁾.

7- البوطي، فقه السيرة، ص 20، 21 بتصرف يسير.

8- انظر: المصدر السابق، ص 27.

9- المصدر نفسه، ص 12.

ثالثاً: أهم معالم فقه السيرة في الكتابين:

إن فقه الغزالي يتجلى في تحليل النماذج البشرية بما يكشف أسباب ضلالها، وسبل هدايتها فتم تزكية النفس وإصلاح المجتمع ونهضة الأمم. على حين جاء فقه البوطي يستلهم النصوص بما يجلي الحكم ويبسط الأحكام، ويميز الخبيث من الطيب في الأصول والفروع في شئون العقيدة والتشريع والسلوك.

كل ما تقدم بين ويتضح ويرسخ في ضوء الفقه الصحيح لسيرته العظمى:

1- فقه تحليل النماذج البشرية:

كانت خاصية تحليل النماذج البشرية بشفافية ودقة من أهم ما خص به محمد الغزالي في "فقه السيرة" سواء ما تعلق من هذا بالعلم الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، أو بصحابته الكرام على تنوع طبقاتهم، أو بخصومه وأعدائه على تباعد دركاتهم.

أ- مع صاحب السيرة العظمى:

لقد بدأ بصاحب السيرة العظمى صلى الله عليه وسلم حيث قرر في سياق تحليل فترة شبابه عليه الصلاة والسلام أن محمداً عليه الصلاة والسلام على ما يملك من وسائل المتاع ما أثرت عنه قط شهوة عارضة أو نزوة خادشة أو حكيمة عنه مغامرة لنيل جاه أو اصطيد ثروة، بل على العكس بدأت سيرته تومض في أنحاء مكة بما امتاز به على أقرانه إن صحت الإضافة من خلال عذبة وشمائل كريمة وفكر راجح ومنطق صادق ونهج أمين. وليس شرف النفس أن تنتفي شهوة الإنسان إلى الحياة أو توجد الشهوة وتنتفي وسائل بلوغها، بل الشرف أن تكون قوة العفاف أربى من نوازع الهوى.

وقد كانت رجولة محمد صلى الله عليه وسلم في القمة، بيد أن قواه الروحية وصفاء النفسي جعلها هذه الرجولة تزدان بمحامد الأدب والاستقامة والقنوع. ثم إنه معافى من العقد الكريهة التي تزين للشباب تعشق العظمة عن طريق التظاهر والرياء أو تطلب الرياسة عن طريق المداينة واشتراء العواطف. فإذا انضم لهذا كرهه الشديد للأصنام التي عكف عليها قومه، وازدراؤه للأوهام والأهواء التي تسود الجزيرة وما وراءها، وإدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات الغالبة تبيّن السر في استثناسه للجبال والفضاء واستراحته لرعي الغنم في هذه الأنحاء القصية، مكتفياً بالقليل الذي يعود عليه من كسبها"⁽¹⁰⁾.

ولا كثيرا. ولا ريب في أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى، وأن شأن الدنيا أنزل قدرًا من أن يأسى عليه رجل العقيدة⁽¹³⁾. لذا فلم يكن غريباً أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمه العباس أن ينادي بصوته الجهوري عند انكشاف المسلمين في غزوة حنين: يا معشر الأنصار! يا أصحاب البيعة يوم الحديبية. لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد ورجال الفداء عند الصدام فهم وهدم الذين تنجح بهم الرسائل وتفرج الكروب. أما هذا الغثاء من العوام، الحراص على الدنيا، السعاة إلى المغنم فما يقوم بهم أمر أو تثبت بهم قدم⁽¹⁴⁾.

هـ - حتى الأطفال:

قال الغزالي معقبا على غزوة مؤتة: "والدلالة التي تعلق على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغنا حدًا لم تعرفه أمة معاصرة، وقد أكسبهم هذا الروح العالي إقدامًا حقر أمامهم كبرياء الأمم التي عاشت مع التاريخ دهرا، تصول وتجول لا يقفها شيء. إن الاستهتار بالخطر والظهور إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم، بل هي قوة غامرة قاهرة، تعدت الرجال إلى الأطفال، فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز.

وحسبك أن جيش مؤتة لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون: يا فرار فررتم في سبيل؟ إن أولئك الصغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومن معه فرارًا يقابل بحشو التراب.

أي جيل قوي نابه هذا الجيل الذي صنعه الإيمان بالحق؟

أي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام؟

من آباؤهم، من أمهاتهم؟ كيف كان الآباء يربون؟ وكيف كان الأمهات يدلن؟

إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس⁽¹⁵⁾.

و- عن المؤلفة قلوبهم:

من أعجب ما أورده الغزالي من تحليل: ما قرره عقيب قسم فيء حُنين حين بدا طمع الطلقاء والأعراب الحديثي العهد بالإسلام: "والعجيب أن هؤلاء الذين فروا عند الفزع، أي - في مستهل حنين - هم الذين كثروا عند الطمع، أي - عند قسم غنائمها -.

13- المصدر نفسه، ص 341.

14- المصدر نفسه، ص 336.

15- المصدر نفسه، ص 319.

وشاء النبي أن يلطف معهم وينسى ماضيهم تكررًا وتألّفًا.

وماذا يصنع؟ إن في الدنيا أقوامًا كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم، فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة! فكذلك هذه الأصناف من البشر، تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان، وتمش له⁽¹⁶⁾.

ز- عن الأعراب البدو:

يجرنا تحليل الغزالي لنفسية "المؤلفة قلوبهم" إلى ما أورده عن معدن أكثر هؤلاء البدو، حيث يقول: "أما البدو الضاربون حول المدينة وعلى طريق القوافل: فهم قوم هملي، لا يهتمهم شيء من قضايا الكفر والإيمان، إنما يهتمهم اكتساب القوت من أي وجه، والحصول عليه ولو من طريق السلب والنهب". "إن البدو جنس جاف غليظ... وعلمهم بشئون الدنيا وحقوق الآخرة يعيي المدرسين، وقد بذل الإسلام جهودًا جبارة في رفع مستواهم المادي والأدبي⁽¹⁷⁾.

على أن الأستاذ قد لحظ أن بعض هؤلاء الأميين إذا لاح نور الحق قبالة بصائرهم كانوا أسرع من غيرهم إقبالًا على الحق واستجابة لندائه.

قرر هذا في تعقيبه على إسلام وفد سعد بن بكر بعد حوار مبسط واع بين كبيرهم ضمام بن ثعلبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عودته إلى قومه وإسلامهم بعد حوار معهم لم يستمر طويلًا. ثم قال الغزالي معقبا: "ذاك وفد يمثل بساطة الأميين في منطقتهم وسلامة طويتهم في جدلهم وتساؤلهم، وخلو أذهانهم من العقد التي تعترض الحق في مسيله السمح. ولا نكران في أن جهاد الدعوة القديم له أثره في الوصول إلى هذه النتائج السريعة⁽¹⁸⁾.

ح- عن مكر اليهود:

يحاول الأستاذ رحمه الله أن يجد تعليلا نفسيا يلائم موقف اليهود من النبي والإسلام فيقرر: "إن التغلغل في فهم العواطف والمشاعر الإنسانية يفسر كثيرًا من العواطف الغامضة. فما معنى أن يغضب اليهود الموحدون كما يزعمون من انتصار الإسلام على الشرك، وبم يفسر حنوهم على القتلى من عبدة الأصنام وسعيهم الحثيث لتغليب كفة الوثنية على هذا الدين الجديد؟!

16- المصدر نفسه، ص 339.

17- المصدر نفسه، ص 204.

18- المصدر نفسه، ص 364.

وبعد مناقشة دقيقة رفض الغزالي هذا الرأي وقرر: "أن الإسراء والمعراج وقعا للرسول عليه الصلاة والسلام بشخصه في طور بلغ الروح فيه قمة الإشراق، وخفت فيه كثافة الجسد حتى تفصي من أغلب القوانين التي تحكمه" (22).

فإذا قال الغزالي بعد هذا "ونحن لا نعلق كبير اهتمام لمعرفة الطريقة التي تم بها الإسراء والمعراج" (23) فيجب ألا يفهم على إنكار المعجزة والحوار، لما سبق من إثباته معجزة بصريح القول، ثم بتعقيبه الجملة الموهمة هذه بقوله: "كلا الأمرين حق ترك ثماره في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم فاستراح إلى حمد الخالق، وقل أكثراته لدم الهمل من الجاحدين والجاهلين، ثم نشط إلى متابعة الدعوة، موقنا أن كل يوم يمر بها هو خطوة إلى النصر القريب" (24).

هذا وقد ورد له كلام حول أحاديث إخباره صلى الله عليه وسلم ببعض الغيوب سيما في الفتن والملاحم غير مسلم له. وإن أصاب حاق الصواب عند ما ذكر: "أن مقصد النبي النذير" هنا هو التحذير منها، سيما فتنة ما يصيب تعاليم الإسلام من ذبول واضمحلال". وله تحليلات وتعليقات قيّمة في هذا السياق لا يصدر مثلها إلا من مثله (25).

على القارئ الواعي أن يدرك مرمى الغزالي من تقريره الشديد حين يقول: "إن محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه تعلموا وعلموا، وخلصوا وسالموا، وانتصروا وانهموا، ومدوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق، وهم على كل شبر من الأرض يكافحون، لم ينخرم لهم قانون من قوانين الأرض، ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة، بل إنهم تعبوا أكثر مما تعب أعداؤهم، وحملوا المغارم الباهظة في سبيل ربهم" (26).

يجب وضع هذا في سياق وروده، حيث يحذر الشيخ من الافتتان بالحوار، وانتظارها، وعدها غاية في حد ذاتها. خاصة ونحن في زمن نام فيه المسلمون وأدلج أعداؤهم، وقعدوا ونهض خصومهم فكانوا جديرين بصيحة تحذير: "يا ويل مسلمي اليوم من انتظارهم لحوار العادات في دنيا كشرت عن أنيابها لاستئصال شأفتهم" (27).

-22 المصدر نفسه، ص 103.

-23 المصدر نفسه، ص 116، 117.

-24 المصدر نفسه، ص 125 و ص 45.

-25 ينظر، المصدر نفسه، ص 47، 48.

-26 المصدر نفسه، ص 43.

-27 المصدر نفسه، ص 45.

يتصل بما سبق موقف الغزالي من السنة المطهرة، إذ إن له تعليقات متناثرة من لم يستجمعها يحيف على الرجل، وربما يتهمه بما هو منها براء، خاصة بعد ما أصدر قبل وفاته بضع سنين كتابه السنة بين أهل الحديث وأهل الفقه، وقد بسط الغزالي موقفه هنا في قوله: "القرآن هو قانون الإسلام، والسنة هي تطبيقه، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكلفيه باحترام القانون نفسه، وقد أعطى نبيه حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه، لأنه في ذلك لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هي طاعة الله، وليست خضوعاً أعمى لواحد من الناس، قال الله عز وجل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَرْوَاقَهُمْ﴾ (28).

"إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقيها، فليس كل ما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام سنة تقبل، ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه، أو وضع موضعه. والمسلمون لم يؤذوا من الأحاديث الموضوععة قدر ما أؤذوا من الأحاديث التي أسيء فهمها، واضطربت أوضاعها. إن الاشتغال بالسنة يجب أن يُحظر على من لم يستجمع الشروط التي تجعل مثل هذا الاشتغال مفيداً للإسلام والمسلمين.

فلا يجوز أن يشتغل بالسنة من لم يدرس علوم القرآن، ويضرب فيها بسهم وافر، فإن القرآن هو الدستور الأصيل للإسلام، وهو الذي يحدد بدقة تامة واجباته وحقوقه ويرتب التكاليف المنوطة به. ويجب بعد رسوخ القدم في فهم القرآن فهم ما يروى من السنن على وجه الحق، فخير لمن يقصر عن فهم السنن أن يجلس لسانه في فمه، فلا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يسوق حديثاً لا يعرف المقصود منه؟ وإن كان يفهم عبارته الظاهرة وحدها.

إن قصر الباع في السنة على كثرة الاشتغال بها أضرت بتوجيه المسلمين، وأشاع بينهم طائفة من الأحكام المبتسرة والتقاليد الضيقة، تنبو عنها روح القرآن والسنة وإن اعتمدت على حديث لم يفهم أو أثر لم يفقه" (29).

ويلخص المؤلف حال المسلمين تجاه الفقه الواعي للإسلام فيقرر متحسراً: "هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث، ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة، ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب

28 - سورة النساء، الآية: 80.

29 - الغزالي، فقه السيرة، ص 33-38.

المقلدين، ثم هجروا المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخطبهم. وكان تفهقر الفكر الإسلامي على هذا النحو وبالأعلى الإسلام وأهله⁽³⁰⁾.

معالم فقه السيرة عند البوطي:

تكاثرت تلك الأحكام المستنبطة من فقه البوطي لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى تجاوزت المائة، وغرضي هنا أن أرصد بعضها المعنيّ بشأن الدعوة، والجهاد، وشيئله صلى الله عليه وسلم.

1- في شأن الدعوة:

اجتهد البوطي في استنباطه أحكامًا وحكمًا لإيثار السرية في بدء دعوته صلى الله عليه وسلم فذكر: "أن تكتم النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته للإسلام خلال هذه السنوات الأولى لم يكن بسبب الخوف على نفسه، لأنه كان يوقن بأن الإله الذي ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس. وإنما فعل هذا تعليماً للدعاة من بعده، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيلة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. وبناءً على ذلك: فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة من حيث التكتّم والجهر، أو اللين والقوة، حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددها الشريعة الإسلامية.

والخلاصة: أنه تجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها وكان ذلك مفيداً، ولا تجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها"⁽³¹⁾.

كما يستنبط حكماً ملزماً للدعاة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، خاصة ما فعله زيد بن حارثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أن فيما كان يفعله زيد بن حارثة رضي الله عنه من وقاية للرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه من حجارة السفهاء، حتى إنه شج في رأسه عدة شجاج نموذج لما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم بالنسبة لقائد الدعوة من حمايته له بنفسه ودفاعه عنه، وإن اقتضى ذلك التضحية بحياته.

30- المصدر نفسه، ص 40.

31- البوطي، فقه السيرة، ص 69، 70 بتصرف يسير.

هكذا كانت حال الصحابة رضي الله عنهم بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولئن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم غير موجود اليوم بيننا فلا يتصور الدفاع عنه على النحو الذي كان يفعله أصحابه رضي الله عنهم فإن ذلك يتحقق على نحو آخر. هو ألا نضن على أنفسنا بالمحن والعذاب في سبيل الدعوة الإسلامية، وأن نسهم بشيء من تحمل الجهود والمشاق التي تحملها النبي عليه الصلاة والسلام⁽³²⁾.

ثم إن هناك كثيرا من الأحكام المستنبطة في سياق الدعوة في مرحلة الجهر بها ص 73، ومرحلة الإيذاء 77، ومرحلة إغراءات قريش التي ساوموا بها النبي صلى الله عليه وسلم لترك الدعوة 82، وحصار الشعب 88، وهجرة الحبشة 92، وقاعدة الحاكمية لله ص 253، وفرضية الدعوة على كل مسلم راشد ص 121، 124، 187.

2- في أحكام الجهاد:

أكثر ما ذكره البوطي من أحكام مستنبطة من فقهه لأحداث السيرة كان متعلقا بالجهاد، وقد وقف كثيرا عند جزئيات تتعلق بوجوب موالاتة المؤمنين ومعاداة الكافرين 131، 171، وتفصيله أحكام جهاد الدفع وجهاد الطلب 155، 229، 253، 310، وأحكام دقيقة تتعلق بالشورى في إدارة المعارك 159، 177، 227، وقضايا الصلح والمعاهدات 160 وسوف نلاحظ من عرض بعض هذه المباحث أن البوطي حفظه الله قد شغل بهذا الأمر كثيرا بما تفرد به عن الغزالي.

تدبر عظمة ما استنبطه البوطي من مناصرة الأنصار للمهاجرين وإخلاص الموالاتة والمعاداة في الله، يقول حفظه الله:

ثم إنه يُستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان شرعيان:

- 1- وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام.
- 2- وجوب نصرته المسلمين بعضهم لبعضهم مهما اختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكنا، فقد اتفق العلماء والأئمة على أن المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين في أي جهة من جهات الأرض، ثم لم يفعلوا ذلك فقد باؤوا بإثم كبير.

ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم الإلهية هو أساس نصره المسلمين في كل عصر وزمن، كما أن إهمالهم لها، وانصرافهم إلى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم وتفككهم وتآلب أعدائهم عليهم من كل جهة وصوب⁽³³⁾.

وفي استشارة النبي صلى الله عليه وسلم في غزوتي بدر وأحد وصلح الحديبية تدبر البوطي فاستنبط قواعد عامة تحكم هذا المبدأ الخطير في تدبير أمور المسلمين في شئون الحرب والسلام، وقد قرر: "التزامه صلى الله عليه وسلم بمبدأ التشاور مع أصحابه. وإذا استعرضنا حياته صلى الله عليه وسلم وجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ في كل أمر لا نص فيه من كلام الله تعالى مما له علاقة بالتدبير والسياسة الشرعية. ومن أجل هذا أجمع المسلمون على أن الشورى في كل ما لم يثبت فيه نص ملزم من كتاب أو سنة أساس تشريعي دائم لا يجوز إهماله. أما ما ثبت فيه نص من الكتاب أو حديث من السنة أبرم به الرسول صلى الله عليه وسلم حكمه فلا شأن للشورى فيه، ولا ينبغي أن يقضي عليه بأي سلطان"⁽³⁴⁾.

وزاد في فقهه صلح الحديبية، حيث كان للوحي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن غير ما أشار به جموع أصحابه أن الشورى في الشريعة الإسلامية مشروعة ولكنها ليست ملزمة، وإنما الحكمة منها استخراج وجوه الرأي عند المسلمين، والبحث عن مصلحة قد يختص بعلمها بعضهم دون بعض، أو استجابة نفوسهم. فإذا وجد الحاكم في آرائهم ما سكنت نفسه إليه على ضوء دلائل الشريعة الإسلامية وأحكامها أخذ به، وإلا كان له أن يأخذ بها شاء بشرط أن لا يخالف نصا في كتاب ولا سنة ولا إجماعا للمسلمين⁽³⁵⁾.

وفي شأن الصلح والمعاهدات مع غير المسلمين يستنبط الأستاذ:

خضوع حالات الغزو والمعاهدات والصلح بين المسلمين وغيرهم لما يسميه بالسياسة الشرعية، أو ما يسميه بعضهم بـ "حكم الإمامة".

وبيان ذلك أن مشروعية فرض الجهاد من حيث الأصل حكم تبليغي لا يخضع لأي نسخ أو تعديل، كما أن أصل مشروعية الصلح والمعاهدات ثابت لا يجوز إبطاله أو اجتثاثه من أحكام الشريعة الإسلامية، غير أن جزئيات الصور التطبيقية المختلفة لذلك تخضع لظروف الزمان والمكان وحالة المسلمين وحالة أعدائهم. والميزان المحكم في ذلك إنما هو بصيرة الإمام المتدين العادل، وسياسة الحاكم

33- المصدر نفسه، ص 130، 131.

34- المصدر نفسه، ص 159.

35- المصدر نفسه، ص 237، ويراجع: ص 177.

المتبحر في أحكام الدين، وتجرد في القصد، إلى جانب اعتماد دائم على مشاوررة المسلمين والاستفادة من خبراتهم وآرائهم المختلفة⁽³⁶⁾.
ومن القضايا التي تتعلق بالجهاد:

جواز الاستعانة بالكفار، وقد تعرض لهذا في ص 178، 227، 290 حيث قرر في الموضوع الأخير: "أن الاستعانة بالكفار تنقسم إلى نوعين":

النوع الأول: الاستعانة بأشخاص منهم للقتال مع المسلمين. إنه جائز إذا دعت الحاجة إليه واطمأن المسلمون إلى صدق وأمانة أولئك الذين سيقاتلون معهم. وقد نقل الأستاذ في موضع سابق ص 178 قول الشافعي رضي الله عنه: "إن رأى الإمام أن الكافر حسن الرأي والأمانة في المسلمين وكانت الحاجة داعية إلى الاستعانة به جاز وإلا فلا".

النوع الثاني: الاستعانة ببعض ممتلكاتهم كالسلاح وأنواع العدة، ولا خلاف أن ذلك جائز بشرط ألا يكون فيه خدش لكرامة المسلمين وألا يتسبب عن ذلك دخول المسلمين تحت سلطان غيرهم أو تركهم لبعض واجباتهم وفروضهم الدينية⁽³⁷⁾.

رابعاً: بين الأستاذين اشتراك واختصاص:

اتضح من العرض السابق أن اتفاق الأستاذين في العنوان ليس من قبيل المتابعة بقدر ما هو تعبير دقيق مقصود لدى الفاضلين، وأعتقد أنها التزما بالدلالة الدقيقة للكلمة في العربية، حيث إنها تعني "الفهم الدقيق المستنبط من دلالات النصوص دون الوقوف عند المعاني الظاهرة للألفاظ".

فكلا الأستاذين قد تجاوز سرد حقائق السيرة وأخبارها الصادقة إلى استنباط الحكم والأحكام، وإفادة العبر والدروس النافعة في الجوانب التي رأيا فيها خللاً من أحوال المسلمين الآن في عصر بات مشحوناً بما يطرد النوم عن عيون العقلاء.

ولقد كان كل من الأستاذين علمياً في اتجاهه، حيث اجتهدا في أن يجعلوا من درس السيرة مدرسة لتخريج أجيال من المسلمين، تجمع بين معرفتها بأحداث السيرة المباركة إجمالاً وتفصيلاً وبين فقهاها لروح هذه الأحداث وأسرارها الكامنة ودروسها النافعة ومنارها الذي يجب أن يستضيء به كافة المسلمين: أفراداً ومجتمعات ودولاً في كافة دروب الحياة الخاصة والعامة.

36- المصدر نفسه، ص 160.

37- المصدر نفسه، ص 290.

كتب الغزالي كتابه وهو في حمية جارفة، نزاعة إلى إيقاظ سبات المجتمعات الغافلة، واستنهاض الهمم المعطلة، التي اكتفت بالتعلق بالقشور والمظاهر، وغفلت عن اللباب والحقائق، فاجتهد الأستاذ في الإيقاظ والتنبيه والإنذار والزجر بما وفق في أكثره.

وإن تجاوز أحيانا بما عده غير قليل من أهل العلم غلوا في هذا الاتجاه مثل تفسيره أحاديث الأخبار بالفتن والملاحم على أنها من الأملية والتفرس ص 46، 47، وكذا في شأن انخرام قوانين الأرض للنبي وأصحابه ص 43، ومنهجه في التعامل مع السنة 11-15، ومنزلة السنة من الكتاب الكريم 33-40. وإذا كان البوطي قد شارك سلفه في كبريات فضائله وسلم مما أخذ عليه إلا أنه شغل كثيرًا بالدمدمة على مدرسة اجتهدت في درس السيرة على منهج اقتنعت آنذاك أن فيه خيرا لأبناء الإسلام من حيث تقرير كمال العظمة المحمدية بين عظماء التاريخ مع إقرارهم جميعا أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم منقبة تفرد بها عن حازوا بعض الفضائل التي أثبتت أسماءهم في سجل الخالدين.

وهؤلاء الكتاب وإن أحصيت عليهم سقطات إلا أنهم ربما يعذرون حينما كتبوا بأن أعينهم كانت تجاه قراء لا يجدي معهم سوى هذا المنهج. والذي يكتب بهذه الروح يغلب بما غلب على القوم، اللهم إلا إذا كان قد اكتملت لديه مقومات العالم المسلم رواية ودراية واجتمعت لديه محاسن مدارس الشرقيين والغربيين، كما هو عند محمد عبد الله دراز ومالك بن نبي وعبد الحليم محمود ونظرائهم في كافة بلاد الإسلام، رحمهم الله أجمعين.

بقيت الإشارة إلى أن كتاب البوطي قد أفاد من الغزالي بلا ريب⁽³⁸⁾، ثم إنه وإن لم يصرح باسمه قط إلا أن بعض تقاريره جاءت كأنها رد عليه مثل: ميزان قبول الأخبار عنده ص 47، وتفصيل القول عن المعجزات ص 12، 11، 109-112، وكذا في فقه أحاديث مشاركة النساء في الغزو والجهاد 291.

هذا وقد كثرت استطرادات البوطي الفقهية حتى بسطت عشرات المسائل، بل المباحث والقضايا الفقهية المحضة، حتى اضطر المؤلف حفظه الله إلى تذييل كتابه بفهرس للموضوعات الفقهية استغرق أربع صفحات.

38- مثل: الحديث عن حال العرب قبل الإسلام، ص 32، وفقه دلالة شق الصدر، ص 47، وجمع الرسول بين

الكلمات الشرعية مع النبوة، ص 50، وفقه دلالات تعظيم الكعبة، ص 56.

فهل لي بعد هذا أن أقرر في خاتمة البحث:

أن فقه السيرة للغزالي هو فقه للكليات من القواعد العامة التي تضبط أطر الدعوة والجهاد، والحكم والمعاهدات ومعاملة غير المسلمين.

وأن فقه السيرة النبوية للبوطي هو فقه للجزئيات المتمثلة⁽³⁹⁾ في أحكام تفصيلية تتعلق بأبواب الصلاة والحج والنكاح والربا والجنائيات والحجائب والتصوير ومصافحة الأجنيبات والسحر ومشروعية الرقي ووجوب هدم الأوثان والتماثيل والحجر والأهلية والندور.

حتى عندما تكلم الأستاذ حفظه الله عن الجهاد والصلح والمعاهدات والإمامة الكبرى وهي أمور عامة كلية نجده قد اتجه في سياقاتها إلى إيراد أحكام جزئية شملت أربعين مسألة فرعية⁽⁴⁰⁾.

وختاماً فإنني لأعتقد جازماً أن كلا الأستاذين قد اجتهد في توظيف خير ما في طاقاته الوهبية والكسبية لتحبير سيرة سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم، ثم بعد استفراغ جهده الجاهد عاد كل منهما ليسجل على نفسه شهادة عجز وتقصير، حيث يقول الغزالي: "إني أعتذر عن تقصيري في إيفاء هذا الموضوع حقه، فشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كبير، والإبانة عن سيرته تحتاج إلى نفس أرق، وذكاء أنفذ"⁽⁴¹⁾.

وحيث يقول البوطي: "وإن كنت أعلم أنني لم أستوف البحث حقه، ولم أعالج كل ما ينبغي معالجته. ومرّد هذا أولاً إلى عجز وقصور"⁽⁴²⁾.

وفي هذا دلالة جلية قوية على أنه مهما عظمت دلاء الكاتبين في سيرة إمام المرسلين فإنها لم تنل إلا غيضاً من فيض نهرها العذب السلسبيل، ولما تزل السيرة المباركة تنادي على العلماء البررة بنبيهم العظيم بأن يجردوا النظر والاستنباط بما يلبي حاجات المسلمين ونوازهم في كل زمان ومكان، وبما يملأ قلوبهم وعقولهم حبا وتعظيماً لسيد الثقلين صلى الله عليه وسلم وبما يزين لهم الاهتداء والافتداء بسيرته وستته في كافة مناحي الحياة الخاصة والعامة. وتلك غاية الغايات لكل دراسة نبوية سديدة راشدة.

39- استأنست في هذا التقرير بما سمعته من أن الشيخ الغزالي رحمه الله كان إذا سئل عن بعض المسائل الفقهية في ندوة يحضرها د. القرضاوي حفظه الله أحال إليه السؤال، وقال: الشيخ يوسف أعلم مني بجزئيات الفقه.

40- انظر: البوطي، فقه السيرة، فهرس الموضوعات الفقهية، ص 381.

41- الغزالي، فقه السيرة، تقديم الطبعة السادسة، 1965م، ص 10.

42- البوطي، فقه السيرة، مقدمة، طبع 1388هـ/1968م، ص 8.

Understanding the *Sīrah*: A Comparison between the Works of al-Ghazālī and al-Būṭī

Two giants of Islamic scholarship and heroes of struggle for the glory of Islam in the contemporary era namely, al-Ghazālī of Egypt and al-Būṭī of Syria, wrote on the Prophet's life and mission under the same title (*fiqh al-Sīrah*). The two writers have addressed similar issues pertaining to the Prophet's life and mission and tried to correct a number of common place notions that, in their view, inhibited true appreciation of the Prophet's role in history. The writer of this paper compares between these two seminal works. He identifies the points of convergence and divergence in the two works in terms of method, content and emphasis. In sum, according to him, the work of al-Ghazālī addresses macro-level issues involved in true appreciation of the Prophet's message and mission. As to al-Būṭī's work, it deals with micro-level dimensions and presents a rational and convincing explanation for them in the over-all context of the Prophet's mission.
